

إلى هذا الحد انتهى جهد الواضعين لنظريات البيوكيمياء في تراكيب المادة الحية . غير أن تحقيق هذه النظرية في كل تفصيلها بالامتحان يحتاج إلى ازمان طويلة تنفق في المكوف على الاختبار والتجربة ، ومن طريق الاختبار والتجربة وحدهما والمكوف عليهما ، يمكن تحقيقها تحقيقاً فاصلاً . اما إلى الإثبات واما إلى النفي . على أن أوفق طريق لتحقيق صحتها هو النجاح في بناء البروتيد من مواد غير حية بين جدران المعمل . ولقد خطا العلم في هذه السبيل بضع خطوات ، ولكنها سبيل كثيرة التعاريج مشعبة النواحي ، وماخطا فيها باحث خطوة حتى أخذ بكثرة شعبها ، فخارفي أيها يتابع السير ليجلو عن الحقيقة الحجاب .

حرية الفكر

ونشر الدعوة الحكومية

محاضرة لبرترند رسل (١)

أوقف « مونكيور كونوى » الذى نحتفل اليوم بذكراه ، حياته على خدمة مبدأين عظيمين « حرية الفكر » و « الحرية الشخصية » . ومنذ وفاته ربح العالم شيئاً من الحرية وفقد منها شيئاً أيضاً . وإذا لم يقض الرأى العام على ما استجد من أنواع الضغط ، فسنجد أنفسنا بعد مائة عام أقل حرية مما نحن الآن . ويجدر بى قبل الدخول فى الموضوع توضيح مانعنيه « بحرية الفكر » لأن لهذا الاصلاح معنيين أحدهما ضيق ينحصر فى أنه « الرأى الذى لا يتقيد بالتقاليد الدينية » : فخر الرأى هو غير المسيحي أو البوذي أو المسلم أو التابع لاية هيئة تبلم بصحة معتقد موروث . وحر الفكر فى نظر الأوروبيين هو الذى لا يسلم بوجود الله . ولكن البوذيين لا يرون فى عدم التسليم بهذا الرأى شيئاً جديداً . وحتى هذا المعنى الضيق لحرية الفكر ليس بقليل الأهمية . وأنا شخصياً مخالف لكل الأديان المعروفة وبودى لو محيت كلها من الوجود اذ لا أرى

(١) يعتبر برترند رسل من أكبر مفكري الانجليز فى العصر الحاضر وفلاسفتهم الاعلام .

لوجودها فائدة تعادل الاضرار التي تنشأ عنها . أجل . لا انكار أنه قد نشأ عن وجودها بعض الفائدة في أزمنة وأمكنة مخصوصة ، ولكن كان ذلك في عهد الفطرة حين كان العقل في دور طفولته . وأما الآن فنحن بعيدون عن ذلك العهد وقد بلغنا رشداً .



برترند رسل

أما معنى حرية الفكر الاوسع فعظيم الخطر . وكان هم الأديان الدائم محصوراً في الضغط على هذا النوع من الحرية الذي لا يتيسر تعريفه ، كالمعنى الآخر ، بكلمتين اثنتين . فلا حرية الا بعد ازالة الضغط . والضغط إما ان يكون ظاهراً أو غير ظاهر . حرية الفكر ولا شك تمتنع اذا وجدت عقوبات تفرض على من يعتقد أو

لا يعتقد بأشياء معينة . إن أغاب الأمم تضع قيوداً لحرية الفكر . فمثلاً يعد التجديف في إنجلترا مخالفاً للقانون . وكذلك الجهر بعدم الاعتراف بالمسيحية . ذلك في نفس الوقت الذي يعاقب فيه كل من يجد في نشر تعاليم المسيحية عملاً بمبدأ مقاومة الشر بالشر . إذن فالقانون الانجليزي يعاقب على عدم التسليم بصحة تعاليم المسيح في نفس الوقت الذي يعاقب فيه على نشر هذه التعاليم ! ؟

أما الولايات المتحدة فلا يتيسر دخولها الا للذين يعترفون بأنهم لا يشايعون فكرة استعمال القوة ، ولا يوافقون على نظرية تعدد الزوجات . وكذلك تجد ان المهاجر مجبر على عدم اعتناق المذهب الاشتراكي اذا استوطن تلك البلاد . ويعد عدم الاعتراف بالوهمية الميكادو خروجاً على القانون الياباني . وبهذا لا يتيسر للمسلم أو البلشي أو المسيحي الطوائف حول الأرض ، الا اذا لزم الصمت وانكر حقائق يرى أن ذكرها جوهرى في اعتقاده . فاذا لم يفعل عرض نفسه للعقاب الذي ينفذ بدقة على ركاب الدرجات الرخيصة في البواخر ووسطى النقل الاخرى . وأما الأغنياء من السائحين فيطلب منهم بأدب وتواضع الابتعاد عن ذكر مايجول

في ادمغتهم حتى لا ينزعج الوطنيون . ورغمما تزعم الامم باطلا من حمايتها لحرية الفكر ، لا توجد لسوء الحظ أمة واحدة من مجموع أمم الارض تركت الناس أحراراً يقولون مايجول في رؤوسهم بلا خوف أو وجل .

تمنع الحكومات نشر الافكار التي تنزعج لها الاغلبية على زعم انها مضرّة وغير ملائمة لمقتضى الحال ولكن هذه الاسباب هي عين الاسباب التي كان يتمسك بهادعاة محاكم التفتيش الرهيبة التي رأت في البروتستانتية ما زراه اليوم في الشيوعية ولست أقصدهم هذا الدفاع عن أيهما أو كليهما . ولقد أصبح ضغط القوانين في العصر الحاضر على حرية الفكر أقل الاخطار التي نتصدي لها . لان الضغط الاقتصادي قد أصبح أشد من القوانين خطراً . أضف إلى ذلك ما دبر من الحملات الشديدة



ميكادو اليابان السابق

التي أريد بها تشويه الحقائق فان لها أثراً كبيراً . تنعدم حرية الفكر اذا تعرض صاحب الفكرة للحرمان من العمل . وكذلك اذا سهل على الناس الحصول على بيانات معززة لوجهة من النظر بعينها ، في حين يتعذر عليهم الوصول الى البيانات التي تزكي وجهة النظر المخالفة . ويسود هذان التأثيران في جميع أقطار العالم التي أعرفها ، اللهم الا بلاد الصين التي تعد بحق معقل الحرية الاخير .

ولا يكون الفكر حراً الا اذا ترك له مجال التنازع مع غيره من الافكار مفتوحاً ، حتى يدلى ببيناته دون معارضة أو معاضدة قانونية أو مالية . ولكن الوصول الى هذا غير متيسر لعدة أسباب . ومع كل هذا فلا يجب أن يثنينا هذا الامر عن العمل للاقتراب جهداً من الكمال .

حدثت لي حوادث ثلاث أثبتتها هنا لا تظهر كيف ان انجلترا رغبة منها في شد أزر المسيحية تكيل لا بنائها بكيلين . ولا تظهر أيضاً بعض ما يتعرض له الناس من المخاطر نتيجة للاعتقاد السائد بأن « العقل ليس كنفوا لتفهم الوحي » وقعت أولى هذه الحوادث في بدء حياتي . فان أبى كان من أحرار الفكر ، وقد توفي وأنا ابن ثلاث سنين موصياً أن أشب بعيداً عن الخرافات ، وعين لي قيمين من أتباع حرية الفكر . فلم تلتفت المحاكم لوصيته وقررت تربيتي على أصول الدين المسيحي . غير أن النتيجة قد صارت لحسن الحظ الى عكس ما رمت اليه المحاكم . فانها على كل حال عملت لأجل تعزيز وجهة نظر مخصوصة . ولو كان والدي قد أوصى بأن أنشأ تابعاً لأية كنيسة لما عارض القضاء في تنفيذ مشيئته . وليس لهذا من معنى الا أن لا والد أن يوصي بتربية ابنه على أى نسق خرافي يشاءه ، ولكن غير مسموح له أن يبعد ولده عن النشوء في وسط الخرافات والاهام !!!

أما ثمانية الحوادث فوقعت عام ١٩١٠ حيث رشحت نفسي لعضوية البرلمان عن الاحرار وكنت على وشك الفوز ، واذا بمن يسألني أن أعد بالذهاب الى الكنيسة في بعض الاوقات . ولما رفضت انتخب شخص غيرى هو الآن من أعضاء الوزارة .

أما الحادثة الاخيرة فهي ان جامعة كبرج دعنتي لأحاضر في كلية التثليث ، ولكن لم تعينني رفيقاً . والفرق بين المحاضر والرفيق هو أن للاخير صوتاً في ادارة المعهد ولا يصح فصله الا لأسباب وجيهة . وكان الاعتراض من جهة الاساتذة الدينيين الذين خافوا رجحان كفة اللادينيين Deists . أما الذى نتج عن هذا التعيين فهو فصلى عن التدريس عند ما بسطت وجهة نظري في الحرب سنة ١٩١٦ . على أننى لم أعد الى منصبى هذا الا بعد أن شبعتم شهوة الناس للفتك ، وكنت نزوهم للدماء .

هذه أمثال مختلفة من العوائق التى تعترض حرية الفكر في انجلترا الحديثة . ومن السهل على أتباع حرية الفكر في انجلترا أن يأتوا بكثير منها وبما هو أشد مما ذكرت أخذاً بالالباب . ولذلك تجد أن الكثيرين من اللادينيين لا يجراؤن على الجهر بما يرون من رأى اذا خالف ما يعتقد به السواد من الناس . وليست حرية الفكر الدينية وحدها هى التى تلاقى مثل هذه العقبات ! فان

استحسان الشخص للبشفية أو الاباحية مثلاً يسبب له متاعب لا تطاق . والادهي من كل هذا ان الحصول على بينات أو براهين تؤيد هذه الافكار يكاد يعد هنا من المستحيلات . بيد أنك تجد الحال على مثل ذلك تماماً في روسيا حيث يمنع على الناس العثور على بينات تضاد نظريات الاتحاد والبشفية والاباحية.

فكما يوجد في بلاد الروس متعصبون يسمون بصحة نظريات لا تزال في دور البحث تسليماً أعمى، نجد في بقية العالم متعصبين يسمون بصحة ما يناقض اعتقاد هؤلاء تسليماً لا يحتمل الجدال أو الشك . فذاك التعصب وهذا التسليم هما منشأ الحروب وسوء التفاهم وأصل الاضطهادات التي يتذرع بها كل من الفريقين

دافع وليم جيمس عن
نظرية «الميل الى الاعتقاد»
وأنا بدوري أدافع عن
نظرية «الميل الى الشك»
لأن كل ما نعتقده يتضمن
إبهاماً وأخطاءً . ولا يوجد
اعتقاد تام الصحة على
إطلاق القول فيجب علينا
إذن أن نصفي الى بينات
الغير المثبتة من الوقائع
التي نتجادل فيها ، ولكي
نكون على استعداد تام
لترك ما ثبت خطؤه . هذه
هي الاسس التي قامت عليها
العلوم . فكل العلماء



وليم جيمس

والمشتغلين بالعلم على استعداد تام للقول بأن ما يعلمونه مفروض للاصلاح والتحويل على مقتضى ما يجد من مناحي النظر أو الاستكشاف وان أقرب النظريات الى الصحة أصلحها للتعبير عن أموراً أكثر . وكل الافكار قابلة للشك بالضرورة .

أما السياسة والدين فعلى الضد من العلم يغافبان كل من يحاول إظهار الحقيقة بالسجن والاضطهاد والحرب ، ويمنعاننا عن سماع بعض البينات

واسماع ما نراه من الآراء على أننا لو حكمت العقل لزالّت تسعة أعشار المصائب الموجودة ، ولتعذر وقوع الحروب ، لأنّه من الهين على من يحكم عقله ان يرى خطأ كل من الحزبين المتنازعين . أما الاضطهاد فلا محالة يحى أثره حينما يصبح هم التربية محصوراً فى العمل لما يؤدى إلى توسيع الافهام لتضييقها . اذ ذاك يقوم بالاھمال أقدر الناس عليها ، لا أكثرهم تملقاً لرجال المسيطرين

ان للطبع العلمى جلالاً ظهر حينما استقبل أهله نظرية النسبية . فهذا اينشتين اليهودى — الالمانى — السويسرى ، والذي عينته الحكومة الالمانية أستاذاً للمباحث فى أوائل أيام الحرب . طرح نظريته للبحث واثبتتها البعثة العلمیة البريطانية حين رصدت كسوف الشمس سنة ١٩١٩ . ومع أن نظرية النسبية قلبت أساس علم الطبيعة رأساً على عقب ، فاننا لم نر من العلماء الا اتم استعداد لقبولها عند ما ثبتت صحتها . هذا لانه لم يدع أحدهم ، ولا اينشتين نفسه — بان كلمة الفصل قد قيلت فى هذا الصدد ولم يزعم زاعم بان اينشتين قد أقام بناء غير قابل للهدم أبد الدهر . ذلك لشعورهم بان أمامهم ما لا يزال حله متعذراً . فالنظرية لا تزال معرضة للتحوير والتكييف ، وقبول العلماء لها غير مقطوع به . هذه هى روح العلم وصبغته

أما اذا كانت هذه النظرية نظرية دينية أو سياسية أذن لاستشم منها الانجليز ريح الجرمانية ، ومعارضو اليهود مبادئ الصهيونية ، والوطنيون طريق الهروب من الخدمة العسكرية . ولقام علماء النسق القديم الى ادارة البوليس يلحون على السلطات لكى تحظر تداول ما ينشر من براھينها المثبتة لصحتها ، ولتفصل عن مقاعد التدريس فى الجامعات المستمسكة بالقديم كل من أخذ من الاسانذة بالفكرة الجديدة . واذا فرض وكان اينشتين قد استمكن من التحكم فى ناصية شعب منحط غير ذى حضارة ، اذن لفعل جهده ليحظر على الناس قراءة كل ما يخالف نظريته من التعاليم ولعدت نظريته بديهة مقطوع بصحتها دون موازنة بين ما لها وما عليها بين البيّنات . أما اذا أريد الموازنة بين المقتضيات فى ميدان افسح ، فهناك الساحة التى تفصل فيها المدافع والبنادق فى صحة ما يدعيه كل من الحزبين . هذه هى النتيجة المنطقية لنظرية وليم جيمس القائلة بحاجتنا « للاعتقاد » ولكنى أقول ، كما قلت سابقاً ، اننا فى حاجة الى الشك .

إذا سلمنا بحاجتنا الى الشك العقلي ، وجب أن نبحث عن السبب في انتشار
المعتقدات التي لا يسلم العقل بصحتها . وأرى أن لهذا سببان : الاول ماورثنا من
الاساطير عن أسلافنا . والثاني ميلنا الى سرعة تصديق مايقال ، كما هي الطبيعة
البشرية . ونحن في ذلك نهب لثلاثة مؤثرات مختلفة كلها ذات خطر . أولها التربية ،
وثانيها نشر الدعاية ، وثالثها الضغط الاقتصادي . ولنبدأ ببحث هذه العوامل
كل على حدة

(١) التربية : تحتكر حكومات كل الأمم المتمدينة نظم التعليم الابتدائي .
ومن نكد الديننا انك تجد أن الذين يوكل اليهم أمر التعليم مسلمين بخطأ بعض
مايلقن للطلاب ، بيد أن كل شخص مستقل الرأي يميل إلى الشك في صحة البعض
الآخر . ولناخذ علم التاريخ مثلاً . فأن كل أمة تحشو كتبها المدرسية بالفخار
الكاذب ، في حين أن الأمم ليست كالأفراد ، اذ يجعلون همهم عند ما يكتبون تاريخهم
محصوراً في تورية أعمالهم المعظمى ، بل على الضد من هذا تجد أن الأمم لا تترك من
واسطة للمباهاة الكاذبة الا سطرتها .

كانت المدارس في عهد تلمذتي تلقننا بان فرنسا أمة مجرمة وأن المانيا أمة
فاضلة . أما ماتعلم المدارس اليوم فمخالف تماماً لما كان يعلم اذ ذاك وكلا القولين
بعيد عن الحقيقة . وتقرأ في الكتب الالمانية ما يفيد أن انكسار ولنجتون
كان محققاً لو لم ينجده بلوخر الالماني . في حين تجب أن الكتب الانكليزية تضعف
جهداً من تأثير هذه النجدة . وبالضرورة يعلم كل ممن كتب لطلاب الامتين
انهم لا يقررون الحقيقة فيما يكتبون وكذلك انقلبت كتب المدارس الامريكية
تماماً عما كانت عليه قبل الحرب فان تعاليمها كانت مسوقة ضد بريطانيا فاخذت
الآن تقرر خلاف ماقررت وتعلم ضد ماعلمت . اذن لم يكن هناك رغبة في الوصول
إلى الحقيقة .

أما المدارس الامريكية فكل همها في الوقت الحاضر محصور في أن تخلق
من المتعلم رجلاً اميريكيًا صميماً . فهل يليق بالالمانى أو الاميريكي أو اليابانى الصميم
أن يكون انساناً مزيفاً ؟ ان الاميريكي الصميم ، رجلاً كان أم امرأة ، هو الذى
يؤمن بفكرة أن اميريكا أحسن بلاد العالم وأرقاها ، وأن الواجب عليه أن ينصرها
في أية من الخلافات الطارئة أو المشاجرات الطاحنة . وقد يجوز أن يكون هذا

الادعاء صحيحاً ، فاذا كان كذلك فلا موجب إذن للشجار بين البلدان ، لأنه يجب على كل بلاد العالم الاعتراف بصحة ما يزعمه الأمير يكيون ويعلمونه لاولادهم . في حين أن هذا مصاد للواقع . لأن مثل هذه الادعاءات لا تصدق خارج حدود البلد الواحد .

يعمل دولاب الحكومة في كل بلد ، لسوء الحظ ، على ترغيب الاطفال في الموت دفاعاً عن الاطماع المشثومة ، طائنين أنهم يموتون في سبيل الحق . هذه أمثال من التعاليم التي تفرسها الحكومات ، لا لبث الحقائق ، ولكن لاعداد جماعات تخدم أسيادها الحكام . فمن الصعب علينا تقوية الروح الديموقراطية ، اذا لم تنظم مدارسنا الابتدائية على أسس قوية

وقبل أن أنتهى من كلامي في التربية أسوق مثلاً آخر عن أميركا ، لا لأنها أكثر شرواً من غيرها ، بل لأنها أحدث الامم . وذلك رغبة مني في إظهار الاخطار التي أخذت في التفريخ بدلاً من الاخطار التي أخذت في الزوال . فلا يمكن فتح مدرسة في ولاية نيويورك الا باذن رسمي (حتى المدارس الحرة) ويحول القانون - الذي لا يزال سارياً - دون اعطاء الاذن بها « اذا ظهر ان التعليم فيها سيحرض على قلب الحكومات المنظمة بالقوة أو بالوسائل غير القانونية » . ولم يحدد القانون معنى « الحكومة المنظمة » . ولذا يمكن ان يقيد منطوقه الدعوة الى قلب حكومة القيصر بالقوة ، كما حدث أبان الحرب العظمى . وكذلك يحظر التحيز لكونلتشاك أو دينيكيين ضد حكومة السوفيت ، ويعتبر هذا أمراً غير قانوني . ولكن هذا لم يكن المقصود . ولأجل أن تفهم هذا القانون يجب النظر في قانون آخر ظهر في نفس الوقت ينص على ان إجازة التدريس لا تعطى الا لمن « أظهر أنه مخلص ومنطبع لحكومة ولاية نيويورك وللولايات المتحدة » وأن لا تعطى لمن « يدافع - بدون اهتمام بالزمان والمكان - عن نظام حكومة غير حكومة الولاية والولايات المتحدة » وبذلك أوجبت اللجنة التي وضعت هذا القانون على المعلم الذي لا يوافق على النظام الحالي ترك الوظيفة . ومعنى هذا ان الذي لا يظهر استعداداً لمقاومة نظريات التحول الاجتماعي ، يجب ان يعد نفسه غير جدير لاعداد أبناء الامة للوطنية الصالحة . فالمسيح ووشنجتون يعدان - حسب هذا القانون - غير صالحين لتربية النشء . فاذا ذهب المسيح مثلاً الى ولاية

نيويورك قائلا « دعوا الاولاد يأتون الى » لقال له مدير التعليم « لا أسمح لك بالاولاد ياسيدى لانك تدعو الى مملكة السماء في حين أن نظام بلادنا والله الحمد « جمهورى » و « مملكة السماء لها نظام دون شك مخالف لنظام ولاية نيويورك فانت راغب في تغييره » فاذا لم يفعل وزير المعارف ذلك اخل بواجب وظيفته . لنسلم الآن جدلاً بأن حكومة نيويورك ونظامها الاجتماعى هما أحسن من مثلهما فى أى مكان آخر على ظهر البسيطة . فهل يمنع هذا من القول بأنهما قابلين للتأصلاح ؟ وهل من يرى هذا رأى يكون غير صالح للتدريس فى مدارس الولاية ؟ أليس معنى هذا ان المدرس مخير بين ان يكون منافقاً أو مغفلاً ؟

منشأ الخطر هو احتكار الحكومة لنظم التعليم . وهو خطر لا يختلف عن الخطر الناتج عن أنواع الاحتكارات الاخرى . وهذا الاحتكار عبارة عن حق غرس أشياء مخصوصة فى أذهان الطلبة ، ومنع الغير عن توصيل أشياء مخالفة لها . أليس هذا مثل احتكار بيع صنف مخصوص للناس ؟

وقد يقول قائل أنه ليس من السهل التفريق بين الحكومة والامة فى البلد الديموقراطى . ولكننا نجد بعد التفكير ان الحكومة لا تخرج عن ان تكون جماعة من الموظفين الذين يتحصلون على دخل كاف مادامت الاحوال تسير على وتيرة واحدة ، فيجعلون همهم محصوراً فى العمل على زيادة نفوذهم ، فينتهزون الفرص السانحة - كتحمس الناس للحرب - لتأسيس نظم التفتيش على صغار الموظفين ، ويحكمون بالموت جوعاً على من يخالف أفكارهم من رؤوسهم . إن أشد النكبات التى تنتج عن أعمالهم هذه هو سعيهم لوضع حد للتقدم وللحرية ولأعمال الفكر . هذا ما ينتج من وضع نظم التعليم الابتدائى تحت رحمة هيئة واحدة . ان اقلنا من أهمية الدين نتج عن تسامحنا فيه . ولكن لم نلبث حتى قامت لدينا أنواع من الاضطهادات أشد هولاً مما سبقها الا هى الاضطهادات السياسية والاقتصادية . ولم تقتصر هذه الاضطهادات على البلدان الغربية لان اضطهاد الافكار فى روسيا أشد فظاعة مما هو عليه فى البلدان الرأسمالية . فقد مات الشاعر الكبير الكسندر بلوك الروسى لجهله التوفيق بين النظام والشيوعية عندما طلب منه تعليم الشعر على القواعد الماركسية . وقد بثنى شكواه من الافراط فى التدقيق عليه للتدريس حسب النسق المطلوب وأبان أنه باذل جهده للوصول

الى رغبتهم فراراً بنفسه من الموت جوراً
كذلك تمنع روسيا نشر مايرمى إلى مخالفة مبادئ عصرها الجديد منذ انتشر
فيها الحكم الشيوعي ، مثلما تمنع نحن بالضبط نشر مبادئ الشيوعية في بلادنا .
فما دام الناس متعصبين لأفكارهم السياسية استحال حرية الفكر ، ومتى استحال
وقع ما هو حادث من الفوضى في روسيا كنتيجة لحاجة الناس لهذه الحرية اذن
فنحن في حاجة الى قليل من الشك يخلصنا من هذه البلايا والكوارث المجتاحة .
ان من بيدهم نظم التربية لا يعملون على نشرها . بل بالعكس يحاولون ملء
الرؤوس فقط ، ولا يهتمون بالفهم . مع أن للتربية مقصدين احدهما علم مقرر هو
عبارة عن القراء والكتابة واللغات والرياضيات الخ وثانيهما خلق أساليب فكرية
يتمكن الناس بها من المعرفة ومن الاستنتاج لانفسهم بطريق العقل . ويسمى
المقصد الاول علماً والثاني فهماً . وفائدة العلم مسلم بها من الوجهتين العملية والنظرية
لأن ايجاد أمة متحضرة على النمط الحديث مرهون على وجود مجموع متعلم . وأما
الفهم فلا يسمون الا بفائدته النظرية فقط لانه من غير المرغوب فيه أن يفكر
الناس لانفسهم . لان حكم المفكرين واخضاعهم عمل شاق .
قال أفلاطون « الاوصياء وحدهم هم الذين يجب أن يفكروا . أما البقية
فعليهم اتباع قادتهم مثل قطيع من الغنم » هذه هي الفكرة التي تسود في عهد
الديموقراطية السياسية في هذا العصر والتي أفسدت نظم التربية الوطنية
وأسبق الأمم في التعليم على أحدث الطرق ، مع البعد عن تجويد الفهم ، أمة
اليابان . فان نظام التعليم الابتدائي فيها على ما أعلم ، قد وصل الى درجة تدعو الى
الاعجاب ولكننا نجد « عبادة الميكادو » قد قويت الآن هناك عما كانت عليه من
قبل — راجع كتاب « اختراع دين جديد » لشامبرلين — ومعني هذا أن نشر
الخرافات قد أصبح من أعمال المدارس في تلك الاقطار . ونحن اذا رأينا سخف
ما يعلمه اليابانيون فذلك لبعدها عن جو عبادة الميكادو . ولكننا لانرى سخافاتنا
لأنها تظهر لنا طبيعية معقولة لعدم نظرنا فيها بالمنظار الحقيقي الذي ننظر به الى
اساطير مملكة الشمس المشرقة وترهاتها . وفي ظني أنه يتيسر للياباني الذي يزور
مدارسنا أن يقول فيها مثلما نقول عن مدارس بلاده ، ولرأي عندنا ما هو أسخف
من عبادة الميكادو .

ليس المقصود هو البحث عن الدواء في الوقت الحاضر بل تشخيص الداء لا غير، باظهار حالة التناقض التي أصبحت فيها التربية في بلادنا، والعثرات التي تقف في طريق الفهم وحرية الفكر الناتجة عن الاحتكار الحكومي

(٢) نشر الدعوة: ان مدارسنا ولو أنها تخرج رجالاً قادرين على القراءة، الا أنهم يعجزون غالباً عن الفهم، وعن تكوين فكرة مستقلة. ولذا تجدهم يعتقدون بصحة أفكار سخيفة مثل «حبوب الدكتور فلان تشفى جميع الامراض» و «الامان يا كلون الجثث»

تقوم حركة نشر الدعوة التي يزكيها الساسة في الوقت الحاضر على الاعلانات وبهذا قدمت لعلماء النفس بخدمة جليلة، إذ كان يظن أغلبهم انه من المتعذر على شخص اقناع الآخرين بجودة بضائعه بلا شيء غير ترديده لفظي «بضائعي جيدة» ولكن الاختبارات أثبتت خطأ هذا الظن

تصور اني واقف في مكان عموي أصبح في الناس قائلاً «أنا أكثركم تواضعاً» فهم بلا شك يضحكون مني ويهزأون بي ولكن بقليل من المال يساعد على نشر ادعائي هذا في مركبات الترام ولوحات السينما وعلى جانبي طريق السكة الحديدية يعتقد الناس بصحة ما أقول. وكذلك لو ذهبت الى أحد التجار وقلت له «انظر هذا مزاحمك المقابل لك يعمل على تعطيل رزقك فارك عملك واقتله قبل أن يتسبب في خرابك» فانه لا يخطر بباله من شيء سوى أن بي مساً من الجنون.

ومع هذا فالحكومات تقول هذا وتؤيده بدق الطبول، فيتخمس التجار ولكن لا يلبثون الا قليلاً حتى يشعروا أن حماسهم قد سبب بوار تجارتهم. فنشر الدعوة على الطرق الحديثة اداة تخلق الحكومات الراقية بواسطتها ما يسمى «الفكرة الديموقراطية»

ان لنشر الدعوة الحديثة شران يختلفان عن بعضها تماماً. أحدهما مساعدتها على نشر المعتقدات غير المعقولة. وثانيهما مساعدة صاحب المال والقوة على من هو دونه ثروة ونفوذاً. وأنا لا أميل إلى تصديق أن البروباجندا تؤثر في المواطن دون العقل. فهذا الادعاء مبالغ فيه خصوصاً وان الفصل بين العاطفة والعقل ليس بالامر الهين. فان من أسهل الامور على العقول استعمال بيئة معقولة في كل موضوع أو بحث. وما دام لكل موضوع وجهات نظر تعزز كل

منها بينات ، فلا لزوم إذن للتمويه على الناس بالباطل ، لأنه معرض للتزييف .
على العكس من البينة فإنها تستدعي اهتمام الناس ، وتستدعي انتباههم .

ان كباتي « صابون كذا » تجذب الناس للصنف . مع أنهما لا تفيدان أى معنى خلاف اسم نوع من الصابون . فلو استبدلنا اللفظتين بكلمتي « حزب العمال » لصوت أغلب الناس له دون أن يطلب منهم ذلك .

لكل وجهة من النظر عدة بينات . ولكن لسوء الحظ ليست الوجهة الاكثر بينات هي الناجحة ، بل الاكثر انتشاراً . فلو صرف شخص مليوناً من الجنيهات في النشر عن بينات تؤيد وجهة نظره ، وبذل مناصره نصف القيمة لتعزيز ما يراه ، لمكث عدد المقتنعين بصحة رأى الاول لانه تيسر له العثور على بينات تؤيد رأيه أكثر من البينات التي تيسر لمناظره الحصول عليها . وهكذا يسهل على الحكومة بالتفوق على خصومها دائماً باحتكارها وسائل نشر الدعوة

لا تؤثر نشر الدعوة في غير الراغبين في التفكير مستقلين بأنفسهم لا غير ، بل بان أثرها يزداد بازدياد المال والقوة . وهكذا تمتنع المساواة بين الافكار . في حين أن من أوجب الواجبات أن نسمى دائماً لتحقيق هذه المساواة ، اذا أردنا بأن نحقق حرية الفكر عملياً . وبما أنه ليس من المنتظر سن القوانين التي تحمي حرية الفكر وجب علينا أن نوجه عنايتنا الى التربية والعمل على تهيئة رأى عام قادر على النقد وتمحيص الحقائق .

(٣) الضغط الاقتصادي : سبق لى أن بحثت بضعة أوجه من هذا النوع .

غير أنى أبحثه الآن بوجه عام . فهو خطر يتزايد شره . ولذا وجبت علينا مقاومته بكل الطرق الممكنة . ففي روسيا السوفيتية يسهل على الحكومة القضاء جوعاً على كل من لا تروق لها آراؤه . وقد بانت مقدرتها على هذا الفعل في الوقت الحاضر أشد مما كانت عليه من قبل . ولا تتقدمنا روسيا كثيراً في مقدرتها هذه فقد طردت فرنسا مثلاً مدرسين من مناصبهم لأنهم ذكروا « دروفس » بالخير وقت محاكمته ، ثم انقلبت الحال وأصبح المدرسون معرضين للفصل اذا انتقدوه في الوقت الحالى . وأما في أميركا فلا يجد الاستاذ مهما بلغ مقامه معهداً يقبل خدمته اذا فكر في انتقاد شركة « استاندرداويل » لان رؤساء الجامعات أخذوا يفكرون بأن يؤملون في أن ينالوا هبة من المستر روكفلر . وفي أميركا نجد اشتراكيين

يتعذر عليهم ايجاد أعمال يتعيشون منها .

ان احتكار الصناعة يقلل عدد أصحاب الاعمال وبذلك يصبح من السهل حفظ قوائم سوداء سرية بأسماء العمال غير المرغوب فيهم . وهكذا يتيسر منعهم من العمل وتركهم قريسة لهجمات الجوع القاتل . فنظام الاحتكار الامريكى والحالة هذه لا يقل فى شره عن نظام الاشتراكية الروسية . وفى العادة أن الانسان يستوى عنده الضغط المسبب من شركة احتكار أو من حكومة ، ما دامت النتيجة التى تقع عليه واحدة .

يجب على الراغب فى استيطان أمريكا التى هى أرقى المراكز الصناعية أو فى غيرها من الاقطار التى تقل عنها خطراً ، اذا أمل أن يعيش بسلام ، أن يعتمد على مناجزة أفكار بعض رجال ضخام لهم آراء دينية أو أدبية أو سياسية يفرضون على أتباعهم الاعتقاد بها ولو فى الظاهرة على الأقل . لانه لو تظاهر مستخدم بالانحراف قليلا عن التعاليم المسيحية مثلاً ، أو توسع فى فهم رابطة الزواج ، أو اعترض على سلطة الشركات الكبيرة ، فاميريكيا ليست بالمحل المأمون له

فالضغط على حرية الفكر موجود فى جميع الاقطار ذوات النظم الاقتصادية . ولذا أصبح الدفاع عن الحرية فى النظام الحديث أشد صعوبة مما كانت عليه الحال فى القرن التاسع عشر ، قرن المنافسات التجارية . ولذا وجب الاقلاع عن تطبيق النظريات القديمة التى نشأت فى عهد الطفولة الصناعية على حاجات أيامنا هذه ، اذا كان لنا رغبة فى الدفاع عن حرية الفكر بصدق واخلاص .

وهنا مبدأ أن اذا اتبعنا انحلت كل المسائل الاجتماعية . وأول المبدأين هو أن يكون المرمى الاسمى للتربية تدريب الناس على عدم التسليم بصحة رأى إلا اذا قدمت بينات تكفى لاثبات صحته : والثانى أن لا تعطى المراكز الا لمن هم أحق بها من غيرهم . ولنبدأ الآن بمناقشة المبدأ الثانى أولاً

ان الاهتمام ببحث أفكار الانسان الدينية والاخلاقية والسياسية قبل اعطائه عملاً ، اضطهاد قاس سيأتى وقت نشمر فيه بوطاته كما سبق وشعر الناس بوطأة ديوان التفتيش . أفليس من الغريب انه على الرغم من أن القانون لا يعاقب الناس على ابداء أفكارهم ، نجد انهم دائماً معرضين للموت جوعاً اذا أبدوها يعارض رأى العام فى اصدار حكم يقضى بالموت جوعاً على أى كان ولكن

الناس لا يجر كون ساكناً أذهب يشاهدون العديد من يموتون ببطون خاوية لأنهم لم يتبعوا
تعاليم الكنيسة أو لأنهم أبدوا رأياً سياسياً مخالفاً للرأى المسلم بصحته أو أنهم
يؤمنون بالوثنية أو المورمونية أو الشيوعية المتطرفة أو الأباحية !! كل هذا إرضاء
لعاطفة التشفي من «الاشرار» الذين لا يستحقون أن «يعطوا عملاً» أليس معنى الامتناع
عن إعطاء شخص عملاً في الاوساط الصناعية هو الحكم على الشخص بالموت
جوعاً . وأنه لا قطع أنواع الموت ؟ أمن اضطهاد أعنف من هذا ؟ يجب أن نقطع
عن منع أى شخص كان عن مزاولة عمل من أجل أفكاره . لأن كلا منا سيكون
يوماً ما ضمن أقلية . فيجب علينا القضاء على استبداد الاغلبية أيا كانت . وهو
أمر لا يمكن القيام به الا باتحاد الناس .

على أن في انتشار الاشتراكية احراج أكثر للحالة لأنه يوجد في الوقت
الحالى مديرو أشغال كثيرون بينهم بعض شواذ . فاذا كبرت الانظمة الصناعية
نقص عدد المديرين ونقص بنقصهم عدداً أصحاب الآراء المستقلة . وعندئذ يرجع
عهد المذابح والاضطهادات وتضرب حرية الفكر ضربة لا قيامه لها منها .
وبقدر ما يزداد تسليم الناس بصحة رأى يزداد اضطهادهم للمخالفين له . إذن
وجب أن نعلم الناس أن يتركوا مجالاً للشك في اعتقادهم . وهذا هو المبدأ الذى
أريد الدفاع عنه .

واذا أردنا أن نرى روح التسامح شاملاً لنواحي الارض فلا مندوحة لنا عن
أن نمرن التلاميذ على وزن البيانات وندريبهم على الرفض التام لكل النظريات التى
لا بينة على صحتها . ويكون هذا بانتخاب قطعة من الجرائد كتبت عن حادثة
وقعت في الماضى وسببت حركة مهمة ، ثم يقرأ المدرس ما قيل فيها ، ما لها وما عليها ،
ويستخرج لهم حقائق من الوجهين لكى يتعلموا القراءة خلال السطور ، فيعلموا
ان ما ينشر بالجرائد ليس كل الحقيقة . وهكذا تضعف في التلاميذ نزعة التسليم
بما يسمعون تسليماً أعمى .

وكذلك يجب تدريس التاريخ على نفس الطريقة . فيقرأ المدرس مثلاً على
تلاميذه تاريخ حروب نابليون ونتائجها بين ١٨١٣ و ١٩١٤ من الجرائد ليروا
كيف دهش أهل باريس من رؤية الحلفاء على أسوار مدينتهم حين كانوا يعتقدون
من قراءة الاخبار كسب نابليون لجميع الوقائع . كذلك يجب مساعدة التلاميذ

على أن يحصوا عدد الاخبار التي قتل فيها تروتسكي لينين ، ليتعلموا الازدراء بالحياة التي لا تفنى . وأيضا يجب أن يعطوا كتابا للتاريخ من الكتب التي تدرس في المعاهد الألمانية ويطلب منهم استنتاج ما ينتظر أن تحويه كتب التاريخ الفرنسية عن الحروب التي ذكر خبر وقوعها بين الامتين . هذا أفيد من تعليم الاطفال نظريات أدبية وغير أدبية ، لان شرور العالم تنتج عن النقص الادبي وعن الحاجة للفهم . أما الوعظ والارشاد فلا فائدة منهما ، بل بالعكس فانهما يزيدان رذيلة الرياء انتشاراً .

أما اصلاح الفهم فيسور بوسائل يعرفها المربون . وأما اذا أردنا أن ننشر الفضائل فالواجب علينا أن نقصر همنا على تنمية الفهم ، لا على تنمية الاخلاق . ان أكبر العوائق أمام الفهم سرعة التصديق . وهي بحق أكبر الشرور التي نعانيها في العصر الحاضر . ولقد زاد انتشارها عن ذي قبل بانتشار القراءة التي هي خير واسطة للمعثر على الاكاذيب التي ينشرها أولو الأمر على صفحات الجرائد وغيرها لاقناع الناس بأشياء مخصوصة

ولو سئلت كيف يجب تطبيق هذين المبدأين (١) اعطاء الاعمال لذوى الكفاءة من غير مراعاة لعقائدهم وأفكارهم (٢) وجعل غرض التربية مداواة مرض سرعة التصديق لكل ما لا تقوم عليه البيئة ، لقلت بأن هذا لن يكون الا بخلق رأى عام متنور وهذا لا يمكن خلقه الا اذا وجد من يريد ذلك . وأما ما يذيعه الاشتراكيون فلا يساعد على ازالة الشرور القائمة . وأما الانقلابات السياسية التي تحدث بين وقت وآخر فلا تخفف الضغط الاقتصادي الذي سيتعاضم إلى أن يؤدي بحرية الفكر ، اللهم الا اذا لم يشأ الرأى العام ذلك وقام مطالباً بعدم تدخل الرؤساء في أمور رؤوسهم الخاصة

اذا أردنا حرية التربية أمكن الوصول إلى ذلك بحصر مجهود الحكومات في التفتيش والاعانة ، بشرط أن يقتصر التفتيش على طرق التدريس لا غير . ومع كل ذلك فان التعليم لم يخلص بعد من نفوذ الكنائس التي تعمل لنشر اعتقاداتها أكثر مما يتيسر لاصحاب الآراء الحرة عمله لنشر شكوكهم . وعلى كل حال يجب أن لا ينتظر من القانون عمل أكثر من اعداد جو حر وتمهيد السبيل لتربية حرة القصد من هذه المحاضرة هو نشر روح الخلق العلمى الذى يختلف تماماً عما

يسمى بالنتائج العلمية . فالتخلق العلمى يخفف ما تصادفه من الاتعاب فى الحياة .
وأما النتائج العلمية الشبيهة بالميكانيكيات والغازات الخائقة والوريقات الصفراء ،
فليست إلا مسببات لانهطاط المدنية

وعلى أعمالنا الحالية يتوقف مستقبل أحفادنا وما اذا كانوا سوف يعيشون
عيشاً أسعد مما نعيش ، أم أنهم سوف ينقرضون تجمداً وتناحراً ، تاركين الارض
ميراثاً للسود وغيرهم من الأمم الهمجية لينبثوا فوقها دعائم التاريخ للأجيال المقبلة

حسين محمود

جيرولامو سافونارولا

بطل الحرية والواجب فى القرون الوسطى

ولد جيرلامو سافونارولا فى فرارا سنة ١٤٥٢ واحرق حياً فى فلورنسا
سنة ١٤٩٨ .



عاش سافونارولا ما عاش
قوى الايمان فى كل المثاليات العليا
سواء أكان مصدرها الدين أم تعاليم
الفلاسفة والحكماء . عاش عيش
النسك ليقوم بواجبه نحو الذى
فطره واسبغ عليه نعمة الحياة .
وحيا حياة القضيلة ليصفى نفسه
من الرذائل وليعطى المثل بنفسه
لمن حوله من أبناء آدم وحواء .
وقضى شهيد الحرية والواجب
ليخرج بالناس من ظلمات الشقاء
والتعاسة الى نعيم الحياه الدنيا
على ما فهمها . ولقد قام فهمه للدنيا

سافونارولا

على أنها الحرية فالحرية عنده هى الحياة ولا حياة بغير الحرية .